ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

اتجاه التأمل فی شعر ابن خفاجة الأندلسی

The Contemplative Trend in the Poetry of Ibn-e-khafagah Al- Andulusi

[1] **Dr. Mufti Muhammad Saleem**
Research Officer, Department of Arabic, G.C. University, Faisalabad.
drnaqshbandi@gcuf.edu.pk
[2] **Prof. Dr. Matloob Ahmad (Corresponding Author)**
Head of Department, Arabic and Islamic Studies
The University of Faisalabad
Faisalabad, Pakistan
[3] Muhammad Farhan Ur Rehman
Ph.D (Research Scholar) MY University Islamabad,Visiting Lecturer(Islamic Studies) GGC Tahlianwala Jhehlum, Pakistan.
E-mail: farhanrehmanmuhammad@gmail.com

ABSTRACT

The article titeld "The Contemplative Trend in the Poetry of Ibn-e-khafagah Al-Andulusi" this study aims to highlight the reflective on of contemplate in poetry, especially in Ibn-e-khafajah, whose poetry has shaped meditation and philosophy in his dialogues with the mountain, the moon and the night, the poet has merged with nature to give them human anxiety to the cause of annihilation. His experience has been rich and, profound He has reflected on the mysteries of the universe and the mysteries of existence. In this analytical study it is necessary to reveal a new contemplative trend in the speech of death through the humanism of immortality. These are three examples that we try to analyze and highlight the prospects for reflection and the substantive and technical dimensions ofexperience.

Keywords: Reflecti, Contemplate, Poetry, Silent nature, Ibn-e-khafajah.

مقدمة:

يتسم كل عمل أدبي بالخلود إذا ورد من التجربة إنسانية صادقة ، وهذه التجربة لا تكتمل إلا إذا
امتزج فيها الفكر والوحدان ، ويعتبر التأمل منبع هذه التجربة الشعرية ، لأنه صادر عن استغراق في التفكير و صدق الشعور، بحيث يحاول الشاعر البحث عن تفسير الوجود من خلال التأمل في مظاهر الكون.

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

والتعامل ميزة اتسم بها الشعر العربي الحديث خاصة في أدب المهجر، وأصبح نزعة واضحة، إلى جانب النزعة الإنسانية، وما كان الشعر الأندلسي شعرا إنسانيا، قد برزت تأملات عميقة في قضايا جوهرية، وقد شكلت ثنائية الحياة والموت معلما بارزاً فى الشعر الأندلسي، لاسيما عند ابن خفاجة، بحيث ارتقى من التصوير الحسي والمباشر للطبيعية ، إلى آفاق أعمق تتصل بضية الوجود ، من هنا شغلت قضية الفناء الشاعر ، وشكلت لديه هاجسا يؤرقه في حياته ، مما دفعني إلى الكشف عن هذه التجارب التأملية وما تثيره هذه القضية من قلق وصراع نفسي بين الأنا والواقع، والوقوف عند أهم معالم التجربة التأملية، باستخدام منهج تحليلي وموضوعي يركز على موضوعات التأمل : خاصة قضية الحياة والموت والإنسان من خلال تحليل نماذج شعرية...

وقد تم اختيار ثلاث نماذج من شعر ابن خفاجة هي: قصيدة الجبل وقصيدة القمر وقصيدة عن الليل قد تجلت فيها التجربة التأملية بشكل واضح.

مفهوم التأملية:

تعتبر التجربة الشعرية رؤية متكاملة لشاعر معين اتجاه قضية ، شغلت تفكيره واتفعل بها ، وهي تجربة تنبثق من تجربة الحياة ، فالشاعر حساس يرى الأشياء والظواهر يعين أكثر دقة ويقترب من الحقيقة بل إنه يستشرف المستقبل من خلال تجاربه المختلفة.

و تعني التجربة مهارة وخبرة وتكتسب من المشاركة في أحداث أو ملاحظتها، ونميز عادة بين مصدرين للتجربة المعاينة والتقصي، والتجربة الأولى في أوّل مواجهة تتم مع النص الأدبي الذي منع فيه عن هذه التجربة.

يكسب تراكم التجارب مهارة خاصة في الحقل الأدبي فالشاعر قديمر بعدة تجارب في واقعه في هذه الحياة أو يمكن أن يعاينها ويلاحظها عند الآخر، لأنه أكثر حساسية ويستشرف الحقائق، وقد عرف غنيمي خلال التجربة الشعرية : بالصورة الكاملة النفسية أو الكونية، التي بصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور، تفكيرا ينم عن عميق شعوره وإحساسه، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي وإخلاص فني ، لا إلى مجرد مهارته في صياغة القول ليعبث بالحقائق أو تجاري شعور الآخرين، بل إنه يغذي شاعريته.[1]

إذا كانت التجربة يعيشها الشاعر أو يلاحظها عند الآخر بتفاصيلها الدقيقة وجزئياتها، فإنه يمزج في ذلك بين الوجدان والفكر، والفكر ههنا نقصد به التأمل العميق والذي يعرفونه، بحالة من الغيبوبة الفكرية والاستغراق الذهني، يعرف بها المرء حول موضوع أخذ بجامع فكره، تحصل لأصحاب الفكر، كي يستجمعوا أفكارهم ويعنوا تصويرها وترتيبها لعملهم الفكري أو الأدبي، وكثيرا ما

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

يستسلم إليها المرء باللاشعور، إذ تمر بمخيلته أطياف تجعله كالنائم وليس نائما وهي شبيهة بأحلام اليقظة.

من هنا تصبح تجربة الشعراء تجربة جمالية منبثقة من الذات نحو الموضوع ، ممزوجة بالفكر والوجدان، يحاول فيها الشاعر فهم حقيقة الكون وتفسير لظواهر مختلفة.

فالتجربة التأملية تجربة شعورية وشعرية في آن واحد، إذ يفكر الشاعر في مشكلة أو قضية عامة وشمولية بحيث يستقصي الشاعر هموم الإنسان المختلفة ويسوغها في قالب جمالي فني بمختلف وسائل اللغة.

أهم الحوافر المؤدية للاتجاه التأملي عند ابن خفاجة:

كانت هناك أسباب مهمة حفزت ابن خفاجة للجوء للاتجاه التأملي منها الغربة والأوضاع السياسية. والاجتماعية والطبيعة، مما جعلت تجربته صادقة وعميقة.

الغربة:

الكثير من الشعراء الأندلسيين قد عانوا من مشكلة الغربة، وقد أبعدوا عن أوطانهم بسبب الحروب والنزاعات التي سادت عهد ملوك الطوائف، وكان ابن خفاجة واحدا منهم قد عانى مرارة الغربة حين رحل إلى المغرب، تاركا بلدته شقر التي عاش فيها وترعرع ، وبات ينشد أشعار شوق وحنين إلى بلدته، بالإضافة إلى الغربة النفسية التي عاشها الشاعر ، في واقع بقي فيه وحيدا بعدما رحل أصحابه ورفقته، وعاش شيخوخته متأملا حدثان الدهر وتقلباته، كما أن ابن خفاجة لم يتزوج مما زاد في معاناته.

فقد مزقت الوحدة كيان الشاعر، وعاش التناقضات في حياته، بحيث انقلبت من حياة اللهو والمجون في الشباب إلى حياة بائسة حزينة متأملة وحيدة.

الأوضاع السياسية والاجتماعية:

مما لا شك فيه أن عهد ملوك الطوائف قد شهد جملة من الأحداث على الصعيد السياسي والاجتماعي، فقد كان عليها بالتناقضات السياسية، وبحرا متلاطما من المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية، حياة متشعبة مضطربة يسودها الفتن والنكسات المتنالية، بحيث حان أوان الحصاد لكل ما بذرت الخلافة المجيدة عصر الحجابة الزاهرة من جراثيم الخير وعناصر الفلاح على السواء، أثمر فيها الخطأ كما أثمر فيها التوفيق بلغت الغاية في الحالتين وتوزعت خيراتها وشرورها أيضاً، جماعات مختلفة من كل جنس ودين، ولقد انهار صرح الخلافة الواحدة وتفرقت أيدي سبأ ، وقام على انقاضها رؤساء طوائف العرب ، وأمراء الجماعات البربرية، وفتيان صقالبة القصور،

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

وتقاسموها إمارات، وظهر اليهود على المسرح السياسي ومكنوا لأنفسهم في إمارة غرناطة زمنا، وقد تغيرت الأمور واستيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوربا، وبين ناري النصاري في الشمال والبربر في الجنوب، وقف ملوك الطوائف وقد ومن أمرهم وأضعفهم الشرف والبذخ.[2]

من هنا انعكست هذه الحياة على نفسية الشاعر، بحيث أصبح يرى الحياة من منظور مأسوي، يعيش الوحدة والعزلة، خاصة بعدما تقدم به السن وأخذ الموت كل رفاقه وأصحابه، بالإضافة إلى الفراغ العاطفي الذي أحسه الشاعر إذ أنه يقي دون زواج.

كل هذه العوامل ساعدت على انقسام شخصيته إلى اتجاهين متناقضين هما:

الاتجاه الأوّل: حياة الشباب، اتجاه لاه ماجن ، حب الخمر والغلمان واللهو.

الاتجاه الثاني: شيخوخة ابن خفاجة تميزت بالتوبة والزهد، ونسكه وتأمله في الحياة والموت، مما جعل شخصيته مضطربة، قلقة وتائهة في هذا الوجود.

الطبيعة:

تعتبر الطبيعة الأندلسية طبيعة ساحرة بامتياز، وقد عد ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأوّل، وقد كان الأندلسيون يلتقون مع النزعة الرومانسية الأولى في العصور الحديثة، على صعيد الطبيعة والارتياح في كنفها والأنس في مفاتنها، وقد ذكر عمر الدقاق، أن الطبيعة عند الأندلسيين، ضاحكة دائما أبدا.[3]

ونحن نقول : ليس دائما، إذ كثير من الشعراء قد جسدوا وجهها الآخر الحزين المؤلم كما خفاجة ، مثلاً ، قد مزج مشاعره الحزنية إزاء الجبل والقمر والبحر والليل ، . . . بالإضافة إلى ابن زيدون في حزنه على ولادة استخدم عناصر الطبيعة في وجهها المتجهم ، وابن حمديس والمعتمد وغيرهم..

فالطبيعة الأندلسية قد ألهمت ابن خفاجة ، وكانت باعثا قويا التأملاته نحو قضايا محيرة مثل الحياة والموت ، فصله الطبيعة عنده بالعبرة أو بمشكلة الفناء، التي كانت تلح على نفسيته إلحاحا يلحق بالمرض النفسي فوقفته إزاء الطبيعة والفناء مجتمعين ، تفاعلا عاطفيا جديداً، قائماً على الرؤية العميقة وعلى التشخيص.

تجليات التجربة التأملية عند ابن خفاجة:

الشاعر والجبل:

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

لقد وجد ابن خفاجة في الجبل السكون والصمت والسكينة التي لطالما بحث عنها في عالمه ولم يجدها، فكان عالمه مليئا بفوضى الصراعات السياسية والاجتماعية، لكونه مثله في مواجهة الرياح وعوامل الطبيعة المختلفة التي تمر عليه، إضافة إلى عامل الزمن، فهو شامخ على مر السنين، ويحمل معاني الوقار التي يتصف بها الشيوخ وهو أمل قد أعطاء الجبل للشاعر، من هنا أدرك ابن خفاجة بعد تأمله لهذا المعلم فلسفة الحياة ومصير الإنسان المحتوم، والموت الحقيقة المؤكدة.

تتجسد نزعة ابن خفاجة التأملية في قصيدته المشهورة عن الجبل، حيث راح يحدثه و يستنطقه لعله يشفي غليله ويهدأ من روعه، إذ يقول:

بعيشك هل تدري أهوج تخب برحلي أم ظهور
فما لحت في أولى المشارق فأشرقت جنت أخرى المغارب
وحيدا، تهادني الفيافي فأجتلي وجوه المنايا في قناع الغياهب
ولا جار إلا من حسام مصمم ولا دار إلا في قتود الركائب
ولا أنس إلا أن أضاحك ثغور الأماني في وجوه المطالب
وليل إذا ما قلت قد باد تكشف عن وعد من الظن[4]

تطرح هذه القصيدة اشكاليات عميقة تؤرق البشرية منذ زمن، فالحياة والموت ومصير الإنسان ككل يشكل هاجسا للشاعر وللإنسان عامة ، فإحساس الشاعر بالوحدة والعزلة في مفارقة الأصحاب والأحباب، وإحساسه الحاد بالزمن وجو الليل الكتيب ، قد أذهل هو ضاعف من قلقه من الزمن المفضي الى الموت المحتوم ، إنه يصارع زمنا نفسي في عمله الباطن، يحاول أن يتخلص منه، تكييف صمود الجبل أمام الزمن الموضوعي.

يواصل الشاعر في اصطياد المفارقات، في محاولة الفسير بعض المدن الكونية التي تحكم الحياة يقول:

وقال ألا كم كنت ملجأ قائل وموطن أواء تبتل تائب؟

وكم مر بي من مدلج وموؤب وقال بظلي من مطي وراكب ؟
ولاطم من ركب الرياح وزاحم من خضر
فما كان إلا أن طوتهم يد وطارت بهم ربح النوى
فما خفق أيكى غير رجفة ولا نوح ورقي غير صرخة
وما غضب السلوان دمعي نزفت دموعي في فراق
فحتى متى أبقى ويضعن أودع منه راحلا غير أيب

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

وحتى متى أرعى الكواكب فمن طالع أخرى الليالي [5]

فيشترك الشاعر والجبل في صفات منها علو الهمة، شموخ الكبرياء، طول العمر، تعدد التجارب، مهابة الوقار، إن هذه لهي مناجاة حقيقية يظهر فيها الشاعر قلقا متعجبا من الموت، ويتشبث بمفاهيم البقاء مع قناعته التامة بحتمية الموت وشموليته، فتأمله قاده إلى أرق المشاعر، وشغل تفكيره بالمصير المنتظر القلق من الموت، وقد شكلت في شعره هاجسا وجدانيا عميقا، والإقبال على المجهول يفرض على النفس صنوفا من محاورات ذاتية يغلفها الخوف.

يستفهم الشاعر ويتعجب حين يخاطب الجبل في حيرة، ويحدثه عن العجائب التي مرت به عبر الزمن، وما تحمله من مفارقات الخير والشر، ويبقى هذا المظهر شاهدا على تجدد العصور وتعاقب الأجيال والأزمنة مع استمرار الحياة فتجسد على لسانه فكرة بقاء الحياة من خلال دوران الأرواح بين أجساد البشر وشخوصهم التي تفنى باستمرار.

كما نلاحظ في هذه الأبيات اندماج الشاعر في الجبل بحيث نجده تارة يتكلم عن نفسه وتارة من الجبل، بل أصبح هو والجبل واحدا، وهذا يدل على أن الشاعر ينسى ذاته لأنه في قمة التأمل الروحي، لكونه يتكلم على الإنسانية جماء.

وفي نهاية القصيدة ، وبعد هذه الجملة من التأملات يستسلم الشاعر البكاء والتضرع لله، وطلب الرحمة ، بعد ما تيقن تماما من أن هذه سنة كونية لا مناص منها، وعلى الإنسان تقبلها والاعتبار من الأمم السابقة والرضى بالقضاء ، على وجد الشاعر الراحة في الدعاء والتضرع والسكينة، لأن هذا هو السبيل الوحيد. لدحض القلق والخوف وهو التوجه إلى الله. يقول:

فرحماك يا مولاي دعوة ضارع يمد إلى نعماك راحة راغب
فأسمعني من وعظة كل عبرة يترجمها عنه لسان التجارب
فسلى بما أبكي وسرى بما شجا وكان على عهد السرى خير
وقلت قد ركبت عنه لطية سلام فإنا من مقيم وذاهب [6]

استنادا إلى ما سبق، يمكن أن تعتبر تجربة ابن خفاجة التأملية مع الجبل تجربة متكاملة، تتم عن تأمل عميق في سر الوجود ومصير الإنسانية وحتمية للموت، وكل هذه الحقائق قد أدركها في جعله معادلا موضوعيا لذات الشاعر، وكان بالجبل الصامد في هذه الحياة، من يمتلك صفة الخلود التي تفتقدها البشرية، فهذا المظهر رمزا جوهريا لموقف الشاعر من الزمن، وتظل فكرة الموت هاجسا يلازم ابن خفاجة أينما ذهب، ولهذا، يرى هيدغر : أن الموت تجربة شخصانية يعايشها الإنسان صبح مساء، فيستمد منها القلق والهم، وهما متلازمان لإدراك كنه الوجود، وضروريان للشعور بالحرية. [7]

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

استخدم ابن خفاجة أسلوب التشخيص ببراعة في هذه القصيدة : فهو وسيلة لازمة لتوليد عنصر الخيال الذي ران على معظم أبيات القصيدة، بحيث غدا عنصر الإبهام الذي يترجح نفس القارئ بين حال

الشاعر وحال الجبل، من مقومات الجودة في القصيدة، وهكذا فإن ابن خفاجة لم يصف جبله وصفا تقليديا قائما على الرؤية الحسية، ورصد الصفات المادية، وشأنه في ذلك شأن لامارتين في وصفه للبحيرة ، حين انبثت مشاعره وأفكاره في أعطاف الطبيعة الأسرة ، وحين سرت ملامح هذه الطبيعة الجميلة في نفسه فيما يشبه الحلول الصوفي الذي لا انفصام له.

لا مناص من القول، أن الشاعر استطاع أمر القارئ من خلال استخدام الأسلوب القصصي الدرامي، في حوار جار بينه وبين الجبل، تتخلله لغة فخمة وجزيلة تشبه لغة الشعر الجاهلي، بما يتناسب والتجربة التأملية العميقة بالإضافة لموسيقى الألفاظ والبحر الطويل، الذي جسد الحوار القصصي ومن جهة أخرى، كان اختياره الألفاظ تتناسب وجو الحزن والقلق الوجودي، الذي لازمه طول هذه التجربة.

إن تجاه ابن خفاجة للطبيعة، واندماجه فيها، في سمة رومنسية ممزوجة بطابع الحزن والتشاؤم، يستأنس بها وحدته من أجل تفسير الرؤية للعالم من حوله، فهذه القصيدة فريدة من نوعها في الشعر العربي، إذ يبنئ مضمونها عن مغزى سام يتمثل في البحث عن إجابة مقنعة السؤال الحياة سؤال قلق الإنسان وخبرته وإحساسه بالغربة الروحية، وبلا جدوى من العيش ومكابدة طبائع الزمن الوجودي الخادع، لكأنه فيلسوف وجودي، دفعته تجاربه الحياتية الطويلة وتأملات العميقة بأسرار الوجود إلى تشخيص صراعه النفسي، شعرا محاولا استشراف طمأنينة ما من جدلية الحياة والموت.

يعتبر استخدام ابن خفاجة لرمز الجبل صورة جديدة الغير معهودة في الشعر العربي القديم حتى أن جودت الركابي قال فيها: ”هذه القصيدة في وصف الجبل تمنحنا نفحة جديدة للشعر الأندلسي، هي هذه المشاركة في العواطف التي يشعر بها المتأمل السحر الطبيعة وما يعتريه من رهبة أو طرب وإعجاب، ولهذا تستطيع أن نقول: إن ابن خفاجة قد استطاع في هذه القصيدة، أن يناجي الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم، فأشرك النفس الإنسانية بسر الطبيعة وأدرك ما يسمى عند الفرنجة بحس الطبيعة.[8]

الشاعر والقمر:

لقد وصف ابن خفاجة الطبيعة الدرجة أنه أصبح رمزا والشاعر الأوّل في وصف الطبيعة حتى إنها سائغة بديعة تصدر من طبع فني لماح، ، فتبدو وكأنها مشاهد خيالية أو مجالس أنس خمرية

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

ويمكن القول بأنه سبق بها شعراءنا في وصف الطبيعة على النحو الذي نعرفه ،وقد كان أثر طريقة ابن خفاجة عظيما بعيدا ، حتى لنلمس آثار هذا الأسلوب الخفاجي إلى نهاية أعصر غرناطة.

إن وصف ابن خفاجة للطبيعة لم يكن وصفاً سطحياً لمجرد الوصف، بل كان يتعمق في وصفها وفي كل جزئياتها وتفاصيلها ، بل نجده يضفي على مظاهرها المختلفة صفات إنسانية، تجعله يندمج فيها، في محاولة الفهم أسرار الكون ومشكلات كبيرة التعلق بالحياة والموت.

لقد تأمل ابن خفاجة أغلب مظاهر الطبيعة، فقد كانت له قصة مع الجبل، وتحاور مع القمر والبحر والليل، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة الصامتة، بل جعلها طبيعة حية، والجوؤة للقمر باعتباره مماثلا للنفس. الإنسانية، يقول:

لقد أصخت إلى نجواك من قمر وبت أدلج بين الوعي والنظر
لا أجتلي ملحا حتى أعي عدلا من الحكم بين السمع
وقد ملأت سواد العين من فقرّط السمع قرط الأنس من
فلو جمعت إلى حسن محاورة حزت الجمالين من خبر ومن [9]

اختار ابن خفاجة القمر لما له من تأثير بالغ على النفس الإنسانية في صفاته وأحواله، حيث يقول المرزوقي في أحوال القمر: قال أبو الحاتم: قال أبوزيد: يقال الهلال مادام ابن الليلة أو ابن ليلتين، فإذا استدار وعظم قبل أن يستدير فهو القمر المستقبل، فإن غطاه سحاب أو قوة فلم ير إلا بعد ثالثة من أوّل الشهر فهو قمر وإلا يدعى هلالا.

وأما القمر فهو ضوء القمر ويقال طلع القمر ولا يقال طلعت القمراء، ولكن يقال أضاءت القمراء، كما يقال أضاء القمر، ويقال وضح القمر وضوحا.

لقد توجه الشاعر إلى القمر متأملا فيه تماما كتأمل سيدنا إبراهيم، لما راح ينظر إلى القمر تارة، وإلى الشمس تارة أخرى، كما ورد في قوله تعالى:

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رَاٰى كَوْكَبًا ، قَالَ هٰذَا رَبِّيْ فَلَمَّا اَفَلَ قَالَ لَا اُحِبُّ الْاٰفِلِيْنَ Oفَلَمَّا رَاٰى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هٰذَا رَبِّيْ ، فَلَمَّا اَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِيْ رَبِّيْ لَاَكُوْنَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّيْنَ Oفَلَمَّا رَاَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّيْ هٰذَا اَكْبَرُ فَلَمَّا اَفَلَتْ قَالَ يٰقَوْمِ اِنِّيْ بَرِيْٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُوْنَ.[10]

وفي الأخير اقتنع سيدنا إبراهيم في هذه الرحلة التأملية. من أصغر كوكب إلى الأكبر ومن ثمة أدرك تجلى له الله من خلال البحث عن الحقيقة انطلاقا من مخلوقات الله ، فتأمل سبيل الإيمان بالقلب والطمأنية.

و ابن خفاجة تعرف على أحوال القمر كسوفه تارة وإقماره تارة أخرى، ونقصانه تارة وإكماله تارة أخرى ، فقد تعجب من التغيرات التي تحدث للقمر محاولا إسقاطها على حياة الإنسان، فالحياة

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

متغيرة بين الخير والشر وطباع الناس في تغير، والدهر لا يبقى على حاله، ولم يبقى شيء على حاله، يقول:

وإن صممت ففي مرآك لي عظة قد أفصحت لي عنها ألسن
تمر من ناقص حورا ومكتمل كورا ومن مرتق طورا ومنحدر
والناس من معرض يلهو وملتفت يرعى ومن ذاهل ينسى ومدكر
يلهو بساحات أقوام تحدثنا وقد قضوا فمضوا، إنا على الأثر
فإن بكيت، وقد يبكي الخليل شجو، يفجر عين الماء في الحجر[11]

والقمر بنظرته العلوية المتأملة يحمل لنا قصة حياة، فهو يحمل لنا دلالة زمنية بالحضور والغياب والزيادة والنقصان وهي مقاربة لحياة الإنسان للنسجمة نموا وموتا مع ولادة القمر واختفائه، وهو بذلك يقدم رسالة واضحة للبشرية، فمن نقص إلى اكتمال ومن ارتقاء إلى إنحدار، وتلك حالات تستوجب التأمل، فهي شبيهة بمراحل نمو الإنسان إذ يبدأ صغيرا ويكتمل شابا، ثم لا يلبث أن يعود كهلا، وإن كان الإنسان يحصده الموت فإن القمر يتجدد ولا يلبث أن يعود سيرته الأولى.

إن الجمال يكتمل عند ابن خفاجة بمحاورة القمر له ، ولكن يجد في دلالة الصمت العظة والعبرة

فالصمت يثير مشاعر الخوف والرهبة في نفسية الشاعر من جهة، ويوحي بالعظة والعبرة من جهة ثانية تلك مفارقات تأملها الشاعر في صفة القمر، وهو نفس الموقف الذي مرّ به أبو العتاهية، لما تأثر بموت الإسكندر
المقدوني ، قائلاً:

وكانت في حياتك لي عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا[12]

يتعجب ابن خفاجة من الناس التي لا تتعظ من الأقوام التي اندثرت ولم يبق لها أثر، كما نلاحظ في هذه الأبيات اتحاد الشاعر مع القمر، بل أصبح القمر معادلاً موضوعيا للإنسان، وهذا يدل على أن الشاعر ينسى ذاته فهو في قمة التأمل الروحي، ويتكلم على الإنسانية جمعاء، برای شوبنهور : "أن التأمل الفني إنما ينطوي على جانبين هامين:

- أولاً: معرفة الموضوع لا يوصفه شيئا فرديا بل بوصفه مثالاً أفلاطونيا، أعني صورة ثابتة لنوع واحد بأكمله من الأشياء، وهنا يتكلم ابن خفاجة حول موضوع تموت الذي يمس البشرية جمعاء.
- ثانياً : شعور الذات العارفة بنفسها لا يوصفها فردا، بل بوصفها ذاتا عارفة محضة خالية من كل إرادة، ومعنى هذا : أن النظر الجمالي ينطوي على خروج تام، على أساليب

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

المعرفة المقيدة بمبدأ العلة الكافية، وهي تلك المعرفة التي تخدم الإرادة والعلم معاً ، من دون الذات أى مصلحة شخصية أو اعتبار ذاتي ، وأن الذات المدركة حين تغوص في طيات الموضوع وتنسى ذاتيتها.[13]

لقد تجرد القمر عند ابن خفاجة، من قيمته الجمالية وبات مدرسة للعبر، ففي صمته عبرة وبلاغة وفي دورته الحياتية التي تحاكي حياة البشر على قصرها عبرة أخرى، وتتشابك الأمور حتى يصبح القمر ذاته شاهدا على ترهات الإنسان بحوراته الدنيوية التافهة، وذهوله عن حقيقة فنائه وتلاشيه، أننا ماضون على نفس الأثر فللقمر ذاكرة جماعية لكل من شاهدهم منذ الأزل.

فيأخر الأبيات، ينفجر الشاعر باكيا من عمق الألم الذي يبعثه أفول القمر، معادلًا بذلك أفول الإنسان، إلا أن دورة القمر تتجدد، بينما الإنسان راحل دون عودة.

ان رؤية القمر عند ابن خفاجة ليست رمزا اللحب والجمال كما عودنا الشعراء، بل مدرسة للعبر وصورة مؤلمة لواقع الفناء الإنساني.

والقمر رمز للبطل العربي، فالقمر يتصف بصفات منها أنه ذو ماهيه زمانية، وهذه الماهية تشتق من البنية الزمانية القمر وتتواري معها، فالقمر يولد وينمو ويكتمل، وكذلك الإنسان في فضاء الدهر، ويصبح الوعي بالذاتية والقيمة بديلا عن الانتماء إلى الأهل ونورا يضيء الطريق المظلم المجهول، وأساسا للفاعلية والمعنى ومجالا لا نهائيا لإغناء الوجود الإنساني، وهذا ما عبر عنه بقوله: "بت أدلج بين الوعي والنظر" فالشاعر يركز على التفكير العميق والوعي لا مجرد الرؤية البصرية .[14]

إن الشاعر العربي بطل حضاري لأنه يريد الانتماء إلى القيمة التي يتذكرها وإلى العالم الشعري الذي يؤسسه بوعيه وبرؤات الجمالية.

وقد أنصف محمد رجب البيومي ابن خفاجة، وحطم كل الدعاوى التي وجهت لشاعر الطبيعة الأول، بأنه يصف الطبيعة الوصف الحسي الخارجي، إذ يرى أن الشاعر ثم ينظر إلى القمر في اكتماله فيراه قرصا من لجين، ولم يتذكر طفولته وهو هلال بعد، فيجده زورقا من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر، ولم ير شحوبه قبل المحاق حسناء مريضة، طال عليها الهجر، كما نسمع من بعض الشعراء، لكنه يصيخ إلى نجواه ويتمنى أن يحادثه في سمائه عن شجونه وآلامه، ويقول : إنه لو يتحدث لحاز الجمالين من خبر ومن خبر، وإن سكت فإنه صاحب الصمت البليغ الواعظ، وإن بكى فعن شجو يفجر عين الماء بالحجر، استلهام بديع حقا، ومحاولة شاعرية لفهم هذا الكوكب المتألق، واستبطان عميق لمشاعره، ونيش حصيف عن خوافيه.[15]

لقد وظف ابن خفاجة أسلوب التشخيص: الذي يجعل الموجودات ذات حركة وحياة ونشاط وتتكلم وتتألم وتتحاور، مما يضفي على النص صورة جمالية، كما امتزجت الصورة البصرية

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

للقمر: النظر، البصر، الحسن الاجتلاء، طورا ، كورا ، مكتملا ... مع الصورة السمعية غير المباشرة في محاولة لاستنطاق القمر في قوله: الإصغاء، السمع، المحاورة ، الإفصاح.

أما بالنسبة للإيقاع، فيبدو أن صوت القصيدة صوت صارخ ، حيث والظروف الانتحارية واختار البحر البسيط المناسب هو القصيدة، وحرف الروي القراء المكسورة عارف العام المن فعالية فتجد صورة القمر المساكن في جو النيل الهادي سكون ممزوج بالوحدة والرهبة التي يعيشها الشاعر الانسان، مما يشكل مفارقة بين سكون الليل وصوت القصيدة الصارخ ، فالنفس منشغلة في التفكير والتأمل في هذا الكون.

لتعد القصيدة في الأخير لوحة فنية جمالية حاول فيها ابن خفاجة فهم الوجود من خلال الموجودات
الكونية.

بناء على ذلك، تبدو تجربة ابن خفاجة التأملية مع القمر تجربة متكاملة، تنم عن تأمل عميق في سر الوجود ومصير الإنسانية، وحتمية الموت وكل هذه الحقائق قد أدركها في القمر، بحيث جعله معادلاً
موضوعياً لذات الشاعر.

الشاعر والليل:

ان خفاجة شاعر الطبيعة والتأمل، فقد كانت له نظرات تأملية عميقة مع الليل، فوصلته به ليست مجرد وصف خارجي وسطحي، إنه ليل الذكرى والأشجان الدائمة، ليل الخوف والرهبة، فتجربته مع الليل كتجربته مع الجبل وكما في قصيدته الطويلة التي وصفه فيها وخلع عليه من ذاته، إنه ليل ابن خفاجة ، إذ يقول :

وليل كما مد الغراب جناحه — وسال على وجه السجل مداد
به من وميض البرق - والجو فحمة — شرار ترامي والغمام زناد
سريت به أحيته، ولا حية السرى — تموت، ولا ميت الصباح يعاد
يقلب متي العزم إنسان مقلة — لها الأفق جفن ، والظلام سواد
يخرق القلب البرق خفقه روعة — به والجفن النجم فيه سهاد
سحيق، فلا غير الرياح ركائب — هناك ولا غير الغمام مزاد
كاني وأحشاء البلاد تجنني — سريرة حب ، والظلام فؤاد
أجوب جيوب البيد والصبح صارم — له الليل غمد والمحجر نجاد
ولما نفرى من دجى الليل طلحب — وأعرض من ماء الصباح ثماد

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

حنت وقد ناح الحمام صبابة وشق من الليل البهيم حداد [16]

إن وصف ابن خفاجة لشدة الظلام الدامس الذي يتخلله وميض البرق كالشرار وصف شديد الدقة بحيث يشرح شلنج هذا المنظر والازدواج بين النور والظلام، بقوله: لو أحاط بنا جميعا نهار يغشاء ظلام الليل أو ليل يسري به ضوء النهار التحققت بذلك الغاية المثلى من جميع الأماني، أو من أجل هذا تثير في نفوسنا الليالي المضاءة بنور القمر هزة عجيبة كل العجب وتلقي في روعنا شعورا رائعا بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى جد قريبة.

تبدو نظرة الشاعر نظرة سوداوية وتشاؤمية للحياة، كسواد الليل وما يحمله من دلالات القلق والخوف والأرق، فقد استعمل كلمات دلت على ذلك مثل: الغراب الغمام، الرياح، البهيم، حداد، نواح، أحشاء، البرق، .... أالفاظ استسقاها من الطبيعة ليعبر عن قسوة تجربته في مقابل صفات الليل مثل: الظلام، الدجى، البهيم ، سهاد ، سواد ، مداد ، زناد، .... أما الصبح فهو صبح ميت، صبح الشباب الذي لا يعود، وهذه الدلالات عميقة تترك في نفس المتلقي أثراً بالغاً تشارك فيه الشاعر ألمه وحزنه، فهي تجربة صادقة.

ولعل صورة الليل عنده ، توحي بالصورة الحقيقية للمعاناة النفسية اليائسة المكللة بالحزن والأم والوحدة ، فليل الشاعر سوداوي حزين لا نهايه له تتلاشي أمامه جميع أحلامه وآلامه بطلوع الفجر. حتى الصبح لم يعد ذلك الأمل المنتظر فهو والليل سواء ففكرة الموت بدت واضحة ومسيطرة على ذات الشاعر، فالليل بوعده أصبح كاذبا، والصبح بدا كالذئب الضاحك، فكلنا الصورتين تنم عن رؤية تشاؤمية يائسة، وهذا ما عبرت عنه الأبيات التالية.

بليل إذا ما قلت باد فانقضي تكشف عن وعد من الظن
سحبت الدياجي فيه سود الأعتنق الأمال بيض تراتب
فمزقت جيب الليل بشخص تطلع وضاح المضاحك قاطب[17]

وتصل به هذه الرؤية السوداوية الدرجة أنها تشكل لديه ثالوثا مأسويا، فالشاعر والظلماء والعيش، صحبة ، تمثل ثلاثي تتقاذفه النوى والنواتب يعاني القلق والغربة، غربة الحاضر عن الماضي، غربة الشيب عن التشبيبة.

فها أنا والظلماء والعيش صحبة ترامى بنا إيدي النوى كل مرتمى
أراعي نجوم الليل حبا لبدره وليس كما من الخلي منجما
فعفت غرابا ، يصدع الشمل وكان على عهد الشبيبة أسحما [18]

يبدو أن رؤية ابن خفاجة التأملية هي رؤية متكاملة عن الحياة البشرية والإنسانية عامة، فالإنسان يعاني من غربة في هذه الحياة، غربة المكان، غربة نفسية تتمثل في زوال هذه الحياة بظهور

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

الشيب، وما الشيب إلا علامة من علامات الشيخوخة المؤدية للموت الحتمي والموت والشيب متعادلان. كلاهما ينبئ عن نهاية مصير الإنسان.

النتائج:

بعد الخوض في تجربة ابن خفاجة التاملية اتضح أن قصائده تجارب صادقة مستوحاة من البيئة الأندلسية ، تفسر قلق الشاعر يزاء قضية الفناء من جهة ، وتترجم إحساسه بالغربة والوحدة والضياع من

جهة ثانية ، لهذا اتسمت تلك القصائد بالنزعة التشاؤمية ، والنظرة المأسوية للحياة.

١- تعمق ابن خفاجة من خلال جدلية الحياة والموت وكان الإنسان المحور الأساس في هذه المعادلة يعيشهاجس الموت الذي يهدده في كل لحظة ، مع إيمانه بقضاء الله وقدره ، وإيمانه بحتمية

الموت وشمولية ، حيث قدم الشاعر من خلال قصائدة ، رسالة إلى البشرية الضرورة التفطن والانعاظ

من فناء الأقوام السابقة ، مما يكتشف النزعة الإنسانية والحس المرهف الديه.

٢- كانت الطبيعة مبعثا قويا في تأمل الشعراء الأندلسيين وخاصة ابن خفاجة، وكان الجبل والقمر والليل حضور لافت ومعادلا موضوعيا للنفس البشرية في القصيدة الأندلسية بث فيها الأمة وأحزانه.

٣- تعتبر قصائد ابن خفاجة في الجبل والقمر والليل نماذج عن الشعر التأملي الفلسفي الذي يبحث في قضايا جوهرية تتصل بالإنسان والحياة والموت.

٤- اكتسى النص الشعري الأندلسي جمالية من خلال توظيف معجم مكثف يترجم مدى عمق التجربة التأملية ، كما استخدم الشاعر التشخيص، وكل أساليب اللغة المختلفة لطرح إشكاليات جوهرية تموج في ذهنه، وكانت الصورة احدى الوسائل التي أعطت الخطاب الشعري الأندلسي كثافة.

٥- يتضح في الأخير أن ابن خفاجة قد وصل إلى النضج الفني والموضوعي، فقد طرح تأملات عميقة تخص البشرية، مما يجعل النص الأندلسي، عميقا ومنفتحا عبر الزمن ويشمل قضايا الإنسانية، ويفند ما ورد عن الشعر الأندلسي أنه شعر سطحي محصور في شعر الطبيعة والوصف الحسي. هذا لا يزال الشعر الأندلسي بكرا ومكتنزا يحتاج إلى البحث والتنقيب.

ISSN Online : 2709-4030
ISSN Print : 2709-4022
Vol.8 No.2 2024

التوصيات:

إن ابراهيم بن خفاجة من فحول شعراء الأندلسيين ، و قد اندمج الشاعر مع الطبيعة ليضفي عليها المشاعر الإنسان القلق والحساس نحوقضية القناء، فقد تأمل في خفايا النفس، وحلق فى أسرار الكون وخفايا الوجود. ولذا ظهر لنا خلال مطالعة شخصيته وشعره المواضيع والعناوين الأخرى أن يحقق عليها المحقق. وهي هكذا:

١- صورة نظائر القدرة في شعر ابن خفاجة.
٢- موضوعات الغزل في شعر ابن خفاجة.
٣- الفكر و الخيال في شهر ابن خفاجة .
٤- الصورة المثالية للمجتمع فى شعره.
٥- افكار المحبة في شعره .

الهوامش

16 الموافات ام اخر من الخير الله اريتر كل ابراهيم من خفاجة (دت) الديوان لاده) (شرحه وضبط نصوصه وقدم له: عمر فاروق بروت - لبنان دار القلم للطباعة والنشر رام لنا (دت) مشكلة الفن - مشكلات فلسفية - (رض) الفعالة .. مرض 184 مصر مكتبة

١٣ أبو إسحاق أبو الحامية (1406هـ/1986م) الديوان (مطا) (العقيق السناني كرم) حوت لبنان: دار بيروت الطباعة والنشر. إحسان على (1997) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين (20) مصيرةدار الشروق للنشر والتوزيع تحسن المرزوقي الأصفهاني (1417هـ / 1996) الأزمنة والأمكنة (15) (ضبطه وخرجايته منصور خليل بروت - لبنان: دار الكتب العلميةمن ١٣٥٦ الظاهر أحمد مكي (1987) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة. (3)

القاهرة دار المعارف ام انجل مثالث نيا (دست) تاريخ الفكر الأندلسي (د.خ) (ترجمة حسين مؤنس) القاهرةمكتبة الثقافة الدينية.م ١٨٠جودت الركابي (1966م) في الشعر الأندلسي (د.ط). مصر: دار المعارف. سعيد علوش (1405هـ/1985) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (د.ع)، بيروت)الدار البيضاء على الكتاب اللبناني / سوشيبس462) على قايز. (2003)، الرمزية والرومنسية في الشعر العربي الحديث دراسة للأبعاد الأسطوريةوالدلالات في الشعر العربي منذ الجاهلية إلى العصر الحديث (2) (د.ب): (د.د).

النقد اللوبي الحب

1- هلال غنيمى المومسلية - من ٣٦٢، غضه للطباعة . والنشر ول

1- السورة الانعام ١٨-4

عمر المقال (1975) ملامح الشعر الأندلسي (ع) بروت . ايمان منشورات دار

12 عامة لسطح (1993) العربية والحسين في الشعر الأملسي (ذا)

ر مصورات عليه الأماني و مطليعة السماح الحديدة

(0) صوفي (1419-/1999) المعجم المفصل في الأدب (2)

الخيار الكتب العالية.

من السائر والسالور (م) (6)) رجب اليومي (1400 / 1980) الأدب الأندلسي بين السعودية: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة.

في فلسفة الجمال في النوعي (14) 45) هلال حماء (2007) جماليات الشعر العربي - دراسة في

الشعري الجاهلي - الحل لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية. بروت) خلال عيسي (2005) النقد الأدي الحديث (62) اللجنة

الطباعة والنشر والتوزيع. (1) خلال فيس (دست) الروستيكية (وسط) الفجالة - القاهرة: الحصة مصر للطباعة والنشر

والتوزيع

2.6 المالات

(18) خالد عبد الكاظم عذاري، وكريم عودة عفران (2018) الدلالات النفسية في شعر الطبيعة الساحقة لدى ابن خفاجة الأندلسي، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، المجلد 43، العدد (01) الصفحات : 537-554

(19) دلال كه به بخش (2013) العالم قصيدة - أنشودنا الجبل والقمر، دراسة مقارنة في شعر

سلي باي و ابن خفاجة، محملة كلية الآداب، المجلد 63، العدد (71)، الصفحات : 1 - 31

١٦ - ابراهيم بن خفاجة الديوان ١١ - ٧٩٨٠

١٧ نفس المصدر من ٤٨

١٨ نفس المصدر - ص ٢٠٦

1. ا

2. ا

3 . I

4 . I

5 . I

6 . I

7 . I

8 . I

9 . I

10 . I

11 . I

12 . I

13 . I

14 . I

15 . I

16 . I

17 . I

18 . I